بقلم: أبو أثمار

... انني اختار في مسيرتي اليسار !

ان الالتزام الواضح والصريح كثيرا ما يعرض حامله للخطر ، وهذا شيء طبيعي لان من يحمل عقيدة هذا العصر لا بد ان يصارع ويقوى كل قوى العصر القديم ، حتى ولو كلفه هذا الصراع حياته ..

هكذا يفهم الالتزام وبعكسه يتحول الى رداء يلبس في حفلات الوجاهة .

بهذا الاسلوب العام بدأ صاحبي يتحدث قبل ان انبس ببنت شفة ، بعد ان جلس الى جانبي .. لا ادري ماذا اقول له ! هل كان يحدثني ؟ ام يتحدث مع نفسه عن فكرة تدور في ذهنه ؟ ولكن قبل ان اصل الى حقيقة حديثه ، واصل قائلا :

ـ « في هذا العصر ، وفي مختلف العصور يبتدع الناس عقائد ومذاهب بعضهم يسميها عقائد وبعضهم لم يدع ذلك ، فظلت مذاهب يتداولها الناس بين مؤيد ومعارض ، قسم ينقرض وآخر يستمر حسب حاجة الناس لهذه العقيدة او تلك وعصرنا الذي نعيش فيه تنتشر فيه سلسلة من العقائد ، الا انه يتميز بعقيدتين متصادمتين ، هما عقيدة العمال واخرى عقيدة البرجوازية ، ولكل من هاتين العقيدتين اتباع وانصار ونظم اجتماعية واقتصادية وقوات مسلحة ، ويحاول كل من هؤلاء بسط عقيدته على العالم، حتى اصبحت الكرة الارضية باجمعها حلبة كبيرة لهذا الصراع الدائم ، الذي بدأ مع بدايات هذا العصر ولا زال مستمرا ، وتقديري ان هذا الصراع لا ينتهي الا بسيادة احدى القوتين المتصارعتين وتراجع الاخرى .

لكنني ارى احدى هاتين العقيدتين في صعود والاخرى في هبوط ، حتى اصبح هذا العصر يسمى بعقيدة الصاعدين « الاشتراكية » والعصر الذي سبقه سمي بعصر نقيضه الراسمالية .

بل اكثر من ذلك ، ان الانسان الذي يؤمن بنظرية وعقيدة الصاعدين يسمى انسان معاصر ، وانسان تقدمي ، والذي ينافضه في الالتزام رجعي وقديم ، وعلى ضوء هذا الالتزام يتوضح انتمائه لهذا العصر ام لا .. هذه بديهية مسلم بها واعتقد انك تشاركني الراي » .

وقبل ان اجيب واصل حديثه : « اذن الالتزام اصبح مسالة مفروغا منها لكل انسان ، طبعا لا اريد ان ابرر التزامي لاقول انه جاء نتيجة الفرض واني آمنت به بدون اختيار لان كل الناس ملتزمون . كلا هناك كثير من الناس ، انت تعرفهم وانا اعرفهم ، ليس لهم التزام ، ولا يكلفون انفسهم عناء التفكير بعقيدة ما .. ولكن اريد ان اقول ان الاختيار صعب والالتزام اكثر رصعوبة لانه يحمّل صاحبه مسؤولية كبيرة قد لا يتمكن من ادائها ، فيقع صريعا خارج الطريق الذي التزم بالسير عليه ، لهذا سمعتني اتحدث عن اصحاب الرداء الذين يظهرون به في ايام الحفلات دون ان يعوا مضمونه وشروطه ومبادئه ، بل وحتى الصفات التي يجب ان يتصف بها الانسان الملتزم » .

وفجاة يتوقف ويقول : « عفوا لقد استرسلت في الحديث وبالتالي نسيت ان اصارحك بالعقيدة التي التزم بها ولكن تقديري ان الحديث نفسه سيعطيك الجواب، ولو بصورة موجزة » .

ومرة اخرى نسي صاحبي تحديد التزامه فراح يشرح الالتزام بقوله : « ان الالتزام يا صاحبي عقيدة للحياة وخارطة ودليل للانسان ، الذي يريد ان يسهم في العملية الثورية لهذا العصر ، يعمل من اجلها كل يوم وكل ساعة ويتمسك بها ، ويناضل من اجلها حتى تسود في المجتمع الذي ينتمي اليه بل والمجتمع الانساني كله ، هذا الالتزام مختلف عن ذلك الذي كان يطلب ازاء العقائد القديمة ، الغيبية ، الطوبائية ، والرأسمالية ، لانه لغة الحضارة الجديدة التي انسم بها هذا العصر ، ويطلق عليه تعميما « اليسار » ، وبالرغم من ان هذه الكلمة تحمل معان متعددة ، لانها تقاس وتتوضح بالمكان الذي توضع فيه او تضاف كصفة لذلك المكان ، لان ما يوصف بانه يسار لقوى معينة قد يتناقض مع يسار قوى اخرى ، بل آن يسارية بعض القوى عندما تقارن بقوى اخرى تصبح يمينا لها .

فيسارية حزب العمال البريطاني مثلا هي كليا على يمين الحزب الشيوعي البريطاني ، وبالتالي متناقضة معه على طول الخط .

اما اليسار الذي التزم به والذي اخترته طريقا لي ، فالحديث عنه طويل ، ويحتاج الى مجلدات ، ولكن ببساطة سانحدث اليك وباللغة التي يمكن آن نتفاهم بها مع بعض دون لف او دوران ، او فذلكة لفظية انه اليسار البروليتاري . صحيح ان الالتزام به والايمان بمسيرته مسالة صعبة في مجتمع تسود فيه افكار الطبقات الرجعية ، التي تتزعج كثيرا من افكار اليسار ، وتنظر لاصحابه والملتزمين فيه بعين العداء والحقد ، وتتحين الفرص للايقاع بمناضليه . ولكن من يؤمن بعقيدة كما قلت في المقدمة لا تهمه جسامة التضحيات التي يقدمها في سبيل ايمانه والتزامه ، وانا ايضا لانني اخترت هذا الطريق عن قناعة وايمان ، لهذا لا يهمني ، ولا يؤثر علي المئات الذين يقفون على يميني ، ويتنافضون مع عقيدتي ، لانني ارى في تناقضهم وصراعهم ظاهرة طبيعية ، لانهم بريدون المحافظة على امتيازاتهم ومصالحهم التي سيخسرونها فيما لو سادت العقيدة التي اؤمن بها ، وكذلك لا يهمني ايضا موزعي الالقاب الذين تعلموها حديثا لانني لست مطالبا بان اقدم فروض الطاعة لاي طرف من هؤلاء : فاليسار في اختياري لا يعرف المساومة او المراوغة على حساب عقيدته ومبادئه ، ولهذا نختار دائما الطريق الصعب الذي يبذل في سبيل اجتيازه مزيدا من الجهد والعرق ، فهو الطريق الذي يتعرض سالكه للشتم والمحاربة والصراع طوال المسيرة الشاقة التي اختارها .

ولكن قوى اليسار باستمرار لا تتوقف ولا تتعثر حتى تصل الى نهاية المسيرة وهي مؤمنة ان هذه النهاية حتمية ، ولكن مجيئها مرهون بتوفر شروط موضوعية وذاتية ، تاتي نتاجا لعمل قوانين الديالكتيك التطويرية في الانتاج والمجتمع والحزب ، من هنا ، يا صاحبي ، فان نهاية الرحلة لا تاتي نزولا عند رغبة ذاتية ، بل لا بد ان نعمل جميعا بصبر وانضباط ووعي من اجل تشغيل القوانين التي تغير حياة المجتمع ، وبالتالي تغير اوضاعنا ، لكن هذا لا يعني ترك الامور ، والنوم على ظهورنا بل تتطلب مزيدا من التنظيم والعمل والمراجعة والنقد والتمحور والتزام طريق اليسار الصعب .

ان الذي يصنع هذا الطريق هو اليسار الملتزم ، المؤمن ، الصادق والمناضل والامين والمنضوي تحت لواء تنظيم بروليتاري قادر على تطويره وتنمية قدراته وتهذيب اخلاقه ، بانتزاع كل الشوائب والافرازات التي علقت به من المجتمع البرجوازي ، واعتناق اخلاق البروليتاريا وصبرها واستعدادها للقتال والنضال والتضحية ، ليتحول الى انسان جديد بكل ما في الكلمة من معنى . يعمل بدقة وبصمت من اجل زيادة فاعلية اليسار، ومن اجل تنظيم اليسار ، ومن اجل تطوير اليسار ، لا يضيع اي جهد ومهما كان بسيطا لا يخدم اليسار بهذه الصفات وبها فقط يصنع اليسار » .

وبعد ان انتهى صاحبي من حديثه الى هنا، قلت له : كلامك جيد لكنني اشعر انك تحاول تقييد اليسار بشروط وصفات وتركت نقيضه (القوى اليمينية) ودورها في عرقلة مسيرة اليسار ، الا ترى انك تحاول فرض شروط على تحرك اليسار؟، فرد علي ضاحكا : « كلا ! ان ظنك خاطيء ، لانني حددت لك منذ البدء اختياري لطريق اليسار ، واستعدادي للنضال في سبيل اليسار ، وهذا كاف لان اكون على طرف نقيض مع اليمين وفي صراع معه ، ولكن الذي اردت التاكيد عليه هو تحديد صفات اليسار الذي اخترته ليس اكثر ، لانني ازعج كثيرا عندما اسمع صفات تلصق باليسار ، وكذلك عندما اراه يتراجع او يقصر ، لان طبيعة العصر واوضاع المجتمع وحياة الجماهير واغلبية الناس ضد القديم ، فلماذا لم ينتصر اليسار ؟ بالتاكيد اراني مشدودا للبحث عن اخطائه التي سببت خللا بمسيرته التنظيمية والسياسية والايديولوجية » .

وما ان قال كلمته الاخيرة حتى وقف وهو يتاقف ويقول : « آه من الله وضيمه : الشايل البرق حمد والبلطم ابن كظيمه » (★)

(★) مثل عراقي يستخدم لوصف اشخاص غير جديرين بالمهام التي يتصدون لها، واصل المثل ان عجوزا كان يقود المواكب الحسينية ، لاحظ عند اعتزاله ان حامل العلم في الموكب انتهازي ، والاخر غير جدير بذلك ..

لحظة !

اختار في مسيرتي اليسار
الخبز واليسار
القمح واليسار
النار واليسار
الدمع واليسار
الدم واليسار
الموت ، او تنقل الدنيا مسارها
الى اليسار

سميح القاسم